مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة: 373–388 تاريخ النشر: 30–05–2019

الهوية الثقافية بين جدلية المفهوم وواقعية الوظيفة

The cultural identity between the dialectic of the concept and the function realism

ط. أسماء بلعالية دومة
جامعة مستغانم
asmadoc2014@gmail.com
أ.د. بدر الدين زواقة
جامعة باتنة

تاريخ الإرسال: 26–02–2019 تاريخ القبول: 14–03–2019

الملخص:

من المعروف أن كل مجتمع يتميز بنمط ثقافي معين، يعكس اتجاهات وعادات وذهنيات أفراده ومعايير الحكم والتفكير لديهم، وكل هذا يتم انطلاقا من الهوية التي تمثل التميز الثقافي وخصوصية الكيان الاجتماعي، وطالما كان الجدل قائما حول المعايير التي على أساسها يتم تحديد فكرة الهوية، هذا من الناحية الصورية كمفهوم، ومن ناحية أخرى دراسة إسقاطات هذا المفهوم على أرض الواقع من خلال ما تمارسه الهوية الثقافية من وظائف فعلية، أي مقاربة الفكر والممارسة وما يمكن أن ينجر عن ذلك من إمكانية تحوير وتعديل أو حتى إلغاء ما كان يعرف سابقا ب"ثوابت ثقافية" على مستوى "الفكر" و"الوظيفة" الاجتماعية والنفسية ووظيفة "الاستمرارية" التي تعتبر جوهر الثقافة ووظيفتها الأساسية، كل هذا موازاة مع تطور تكنولوجي كبير وعمليات الحراك الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ومختلف مفاهيم التغير الاجتماعي والثقافي والتي _بدون شك_ ستلقي بآثارها وتأثيراتها على البناء العام للهوية الثقافية كفكر وممارسة . انطلاقا من هذا

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:373–388 تاريخ النشر: 30–05–2019

يمكن أن نطرح التساؤل الرئيسي على نحو مزدوج كالتالي: ماهي أهم ضوابط وحدود مفهوم الهوية الثقافية، وكيف يمكن الموازنة بين هذا المفهوم وواقع وظيفته الفعلية (أي التطبيق) في إطار الرؤى والاتجاهات التقليدية والحديثة؟

الكلمات المفتاحية: الهوية الثقافية، التثاقف، الاغتراب الثقافي، التداخل الثقافي.

Abstract:

It is well known that each society is characterized by a particular cultural style, which reflects the attitudes, habits, beliefs, and norms of governance and thinking. All this is based on the identity that represents cultural uniqueness and the specificity of the social entity. As long as the debate is about the criteria on which the idea of identity is determined, this in the term of conceptual aspect as an expression, on the other hand, the study of the projections of this concept on the ground through exercising the cultural identity of the actual functions, ie the approach of thought and practice and the possibility of the modification or even cancellation of what was previously known as "cultural constants" At the level of "thought" and "Social and psychological mobility and the function of the “continuity", which is the core of culture and its basic function. This is in parallel with the great technological development and social, political and economic mobility and the various concepts of social and cultural change which will undoubtedly affect the general construction of cultural identity as a thought and a practice.

From this we can ask the main question in a double way as follows: What are the most important controls and limits of the concept of cultural identity, and how can be balanced between this concept and the reality of its actual function (the

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:373–388 تاريخ النشر: 30–05–2019

application) within the visions and trends of traditional and modern?

Keywords : cultural identity, acculturation**,** cultural aliénation, cultural interference

إن موضوع الهوية **Identity** يعكس بعدا فلسفيا لما له من عمق وأبعاد، فنجد أن لها علاقة بالتطابق مع الذات عند شخص ما أو جماعة اجتماعية ما في جميع الأزمنة والأحوال، للتعبير عن قدرة الفرد أو الجماعة في الاستمرارية في أن تكون ذاتها، ويرتكز سؤال الهوية حول مبدأ الوحدة في مقابل التعدد والكثرة، والاستمرار في مقابل التغير والتحول. وفي بعد آخر، يعنى سؤال الهوية بطرق محددة في تخيل جماعات اجتماعية، وتأسيسها والانتماء الجماعي لها. هذا ما يجعلها ترتبط بمفهوم وروح الجماعة، هذه الأخيرة التي تحاول المحافظة على ثقافتها وتراثها وذكرياتها وقيمها طابعها، مما يحيل إلى فكرة الاستمرارية بين الأجيال والقوة الأخلاقية للتراث.

غير أن الآراء تتباين حول مفهوم الهوية بحيث هناك اتجاه مهيمن يفضي إلى أنها_أي الهوية_ طبيعية وأبدية تصدر عن التطابق مع الذات والفرد أو الكيان الجمعي المكتفي ذاتيا، بعكس الاتجاه الحديث والنقدي الذي ينظر إلى الهويات على أنها تتأسس في سياقات اجتماعية وتاريخية محددة وأنها عرضة للتغير، بالتالي فهي تتشكل في ومن خلال علاقاتها المتغيرة مع الهويات الأخرى، حيث تستمد تمايزها مما ليس فيها.[1]

[1]– طوني بينيت_لورانس غروسبيرغ_ ميغان موريس، مفاتيح اصطلاحية جديدة، تر: سعيد الغانمي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2010، ط 1، ص ص 700–703، بتصرف.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:373–388 تاريخ النشر: 30–05–2019

ويمكن القول باختصار أن الهوية هي أن يعرف الشخص جذوره وميوله ويؤكد على انتمائه لهذه الجذور.[1] ويحيل هذا إلى علاقتها_ أي الهوية_ بمفاهيم أخرى وثيقة الصلة كالانتماء والثقافة.

الثقافة: The Culture

من الصعب أن نجد تحديدا شاملا وبسيطا ومحددا لمفهوم "الثقافة"، حيث ناقش "مالك بن نبي" هذه الفكرة بكثير من العناية والاهتمام وكيف أننا نقرنها دائما في الكتابات العربية بمرادفتها في اللغة الأجنبية culture، ويحيل ذلك حسب رأيه إلى أن الكلمة في العربية لم تكتسب بعد قوة التحديد التي ينبغي أن تتوافر لكل مفهوم يخص علما، يعود هذا إلى كون الثقافة مفهوما حديثا.

إن الفعل (ثقف) أصل لغوي يتصل تاريخه بلغة ما قبل الإسلام، "ونجده استعمل بمعان مخالفة للمفهوم المتعارف عليه حاليا، (ثقف)، (رجل ثقافة)، صار حاذقا، و(ثقفت الشيء) أي حذقته، والرجل المثقف الحاذق الفاهم، وغلام **ثقيف**: أي ذو فطنة وذكاء. أما الثقافة بالمعنى العام فهي ما يتصف به الرجل الحاذق، المتعلم من ذوق وحس انتقادي أو حكم صحيح أو هي التربية التي أدت إلى اكتسابه هذه الصفات".[2]

وربما ليس صدفة أن نجد ما يترجم معنى الثقافة في اللغة العربية يحيل إلى الفطنة وحس المعرفة، بما أن المفهوم العام للثقافة والذي كان سائدا خاصة في بداية انتشاره كان

[1]– سماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، معجم مصطلحات عصر العولمة، الثقافية للنشر والتوزيع، 2006، ص 497.

[2]– خالد حامد، مدخل إلى علم الاجتماع، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ط03، ص156.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:373–388 تاريخ النشر: 30–05–2019

مقتصرا ومحصورا على تلك الفئة المتعلمة والتي تتصدر المجتمع وتمثل الفئة ذات الرأي الراجح والقول السديد.

والواقع أن فكرة "ثقافة" جاءتنا من أوربا، وقد أورد "مالك بن نبي" تفاصيل ترجمة culture التي لها علاقة مباشرة ب"زراعة الأرض" والتي كان لها دور هام في صياغة رموز الحضارة الأوربية والفرنسية خاصة وأن الإنسان الأوربي كان "إنسان الأرض" وقد تم إسقاط الإنتاج الزراعي على فكرة الإنتاج والإبداع عموما، وهكذا يشار بعد ذلك إلى حركة تعاظم الفكر والإنتاج بكلمة culture خاصة مع النهضة الأوربية[1]، وما أعقبها من إنتاج في حقول معرفية متعددة.

لكن مفهوم الثقافة عرف ولا يزال يعرف معان متجددة نظرا لتطور المجتمعات وأيضا ما خلفه التطور التكنولوجي وتحول الخارطة السياسية والاقتصادية خاصة منذ الثورة الصناعية والنهضة الأوربية، وسنستعرض فيما يأتي مفاهيم الثقافة وفقا لعدة اتجاهات وآراء وتخصصات، حيث عرفها عالم الأنتروبولوجيا "تايلور"أنها: ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات أو أي قدرات أخرى وعادات يكتسبها الإنسان بصفته عضوا في المجتمع.[2] إذ أن أول ما يثير انتباهنا من خلال هذا الطرح أن وصف الثقافة "بالكل المركب" يشير إلى مستوى معتبر من التعقيد والتفاعل بين عدة عناصر مما يتجاوز بالضرورة فكرة "الذكاء" أو "الحس المعرفي" كما في مفهوم المصطلح لغة، فهي حسب "تايلور" تشمل ما يمكن أن يكتسبه الإنسان من مجتمعه فهو إذا مرآة عاكسة لاتجاهات وأنماط الحياة والتفكير داخل المجتمع.

[1]– مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، 2000، ص 26.

[2]– أحمد بن نعمان، هذه هي الثقافة، دار الأمة للطباعة والترجمة، الجزائر، ص20.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:373–388 تاريخ النشر: 30–05–2019

بينما يتجه الدكتور "عزي عبد الرحمن" إلى تعريف الثقافة على نحو موجز باعتبارها: معايشة الواقع انطلاقا من القيم[1]، وقد تبنى منهجا معياريا فنلاحظ من خلال التعريف أنه يذهب بالثقافة إلى ما ينبغي أن يكون، فيحلل الثقافة انطلاقا من سلم هرم تمثل القيم أعلاه والتي مصدرها الدين ثم النشاط المنطقي والعقلي المتمثل في عمليات كالإدراك والفهم والتأويل التي مصدرها العقل طبعا، أما أدنى الهرم فيتسع ليشمل حركة الإنسان مع واقعه، أي الجانب الملموس ويكون مصدرها السلوك، ومن خلال رؤيته للثقافة وتحديده لهاته المستويات نلاحظ أن النشاط العقلي هو بمثابة وسيط بين قيم الإنسان المجردة والمثلى وبين فعله وحركته في الواقع وبالتالي فإن مهمة العقل هنا هي ترجمة القيم ونقلها في سلوك الفرد حتى لا يخرج عنها فعله، فيحدد القيم كحتمية ثقافية تسير نشاط الفرد في مجتمعه وتضبط سلوكاته وعاداته ونمط معيشته، ومن ناحية أخرى تجعله يرتقي إلى مستوى المعاني الكامنة في الدين.

في إطار تحليلنا لما سبق، تتوجب الإشارة إلى أن هذا الطرح بالرغم من أنه يستوفي الكثير من العناصر الضرورية ومنطلقاته الفلسفية المعيارية لكنه يغفل جوانب دقيقة من ثقافة الإنسان، فحتى القيم في نفس المجتمع قد تختلف وفي كثير من الأحيان يستعصى على الفرد أن يحور عاداته وأفعاله وفقا لهاته القيم، فهناك عناصر دخيلة تتوسط العلاقات بين القيمة والعقل والفعل، كالبناء الاجتماعي والسلطة والمكانة والدور وغيرها وهذا ما نحتاج لتحليله إضافة إلى العناصر المذكورة سابقا.

والسؤال المطروح هنا: هل يمكن للفرد أن يعكس ثقافة مخالفة لمجتمعه؟ وهل المجتمع هو الذي ينتج ثقافة أم أن الفرد هو الذي يشكلها بنفسه؟ يحيلنا هذا إلى طرح

[1]– عزي عبد الرحمن، دراسات إعلامية في نظرية الاتصال، سلسلة كتب المستقبل العربي، رقم 28، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2003، ص107

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:373–388 تاريخ النشر: 30–05–2019

تساؤل اخر لا يقل أهمية: هل الثقافة خارجة ومستقلة عن الأفراد باعتبارهم " حاملين للثقافة"، أم أنهم منتجون لها؟، هنا يظهر مستوى معين من المفارقة، بين أن تتمتع الثقافة بثبات وعمق يجعل للأفراد دورا يتمثل في كونهم ناقلين للثقافة، وبين المفهوم الحديث الآخذ في التطور والذي يفضي إلى تحول الأفراد إلى صانعين ومنتجين للثقافة وبالتالي اصطباغها _أي الثقافة_ بصفة لا ثابتة وغير محددة في زمان ومكان معين.

بين الثقافة والحضارة:

كثيرا ما يتصل في أذهاننا مفهوم "الثقافة" مع مفهوم "الحضارة" انطلاقا من وجود ارتباط فعلي بين المفهومين، وقبل التطرق لهاته العلاقة ينبغي أولا التطرق لكل مفهوم على حدا.

يرى "مالك بن نبي أن الحضارة: "هي جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه"[1]، بمقابل هذا وفي إطار النظرة الشمولية لمفهوم الثقافة يمكن أن نقول أنها عند "إليوت" تمثل الأسلوب الشامل للحياة، من المهد إلى اللحد، من الصباح إلى المساء، وحتى في الأحلام، وهنا نجد دورا مهما للاشعور أو الخلفية اللاشعورية، كما يفيد هذا أن الثقافة التي تشغل وعينا بالكامل ليست هي كل الثقافة.[2] أي أن هناك فرق بين المفهومين، فالحضارة حسب رأي "مالك بن نبي" حصيلة تفاعل تراكمي متكامل للجهد الإنساني، فهي ترتبط

[1]– طيب برغوث، محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، الشاطبية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ط1، ص 88.

[2]– تيري إيجلتون، فكرة الثقافة، تر: شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة،2012، (ب ط)، ص 10.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:373–388 تاريخ النشر: 30–05–2019

من ناحية بقدرة الإنسان على الإنجاز والاجتهاد، ومن ناحية أخرى القدرة على مواجهة الصعوبات والتحديات التي لا تكاد تنفصل عنه.

وقد قدَم مالك "بن نبي" فهما للوظيفة الحضارية للثقافة، وذلك في إطار الربط بين الثقافة والحضارة، "حيث دعا إلى ضرورة العودة بالثقافة إلى مستواها الحقيقي، والذي يتحقق إلى ناجز ثقافي معاش بالنظر إليها كعامل تاريخي ثم كنظام تربوي تطبيقي لنشرها بين طبقات المجتمع، وبهذا ربط بين التاريخ والثقافة"[1]. وربما يحيلنا هذا الربط إلى رأي الدكتور "حسن حنفي"، بأن لكل ثقافة مسارها ولا يوجد مسار واحد لكل الثقافات، فالثقافة تعبر عن مرحلة تاريخية بعينها وتتشكل في إطار الوعي التاريخي لأمة ومن خلاله.[2]

الهوية الثقافية: cultural identity

تتباين الآراء وتختلف حول ضبط مفهوم محدد للهوية الثقافية، لكن يتم الاتفاق غالبا وعموما على أنها "ما يميز جماعة بشرية عن غيرها: كالعيش المشترك، العقيدة، اللغة، التاريخ، المصير المشترك... كما عبر عنها مونتسكيو بـــ "روح الأمة" لأنها تمثل رمز وحدتها واستمراريتها، بحيث تتفاعل عناصر هذه الهوية ضمن هوية مركزية أو أرضية مرجعية، تتحدد وفق المرجعين التاليين:

ـــ **الثقافة:** هي التي تكفل توافق الفرد مع الجماعة وتحقيق ذاته في إطارها

[1]– محمد جلوب الفرحان، الخطاب النهضوي في فكر مالك بن نبي، دار بن مرابط، الجزائر، 2014، ص89.

[2]– عبد السلام عفوفو، المفاهيم العامة للثقافة وانعكاساتها، مجلة دراسات إسلامية، الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، العدد 20، 2006، ص127.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:373–388 تاريخ النشر: 30–05–2019

ـ **الوطنية:** الهوية الوطنية تشمل كل السمات الثقافية للأمة، إذ أصبح مفهوم المواطنة من رموز وحدة واستقرار الأمة أو الشعب الذي يعيش ضمن إقليم جغرافي محدد كما بإمكانه أن يستوعب كل الثقافات الفرعية."[1]

نجد الآن فرصة لنتساءل حول تحديد الهوية، هل هي هوية المكان؟ كون الإنسان يولد في بقعة من الأرض، ويترعرع فيها، ويحن إليها كلما غادرها، أم أن أنها هوية تنشأ من العرق، كأن نقول هوية أمازيغية نسبة إلى الأمازيغ، أو كردية نسبة إلى الأكراد. غير أن العرق سلالة بيولوجية لا إرادة للإنسان في اختيارها كما يصعب في كثير من الأحيان تحديدها نظرا لعوامل التزاوج والهجرة والحروب .. وهكذا فقد ساد في النظريات البيولوجية في القرن التاسع عشر أن الهوية ترتبط بالعرق والسلالة، إذن هل تنشأ الهوية من الطائفة والدين؟ أم أنها تنشأ من اللغة؟ وقد نختصر محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات، فيمكن القول أن الهوية تنشأ من الثقافة، فإذا كانت الدولة الإسلامية والإمبراطورية العثمانية قد اختفت وانهارت فإن الثقافة الإسلامية باقية ولها معاهدها ومدارسها ومعالمها، وبالتالي فإن ما يربط المسلمين هو الإسلام والثقافة الإسلامية بغض النظر عن لغة الأفراد وأجناسهم. كما تأتي الهوية من المرحلة التاريخية فرغم ثباتها النسبي فإنها تتغير على الأمد الطويل، قائمة على التحدي والمنافسة.[2] تحد من أجل البقاء والتطور.

غير أن الهوية الثقافية تتعرض لعوامل خارجية وداخلية تساهم في تغير ملامحها وسماتها، وقد تكون عمليات مقصودة أو نتيجة تطور طبيعي يتماشى ومسار التطور العام والتكنولوجي في كافة المجتمعات.

---

[1]– خالد حامد، مدخل إلى علم الاجتماع، سبق ذكره، ص168.

[2]– حسن حنفي، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2012، ط 1، ص ص 63–72، بتصرف.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:373–388 تاريخ النشر: 30–05–2019

الخصوصية الثقافية:

تشير كل هوية ثقافية إلى خصوصية معينة، أي ما تختص وتتميز به ثقافة معينة عن الأخرى، والخصوصية الثقافية تنتقل بين الأجيال عبر مختلف عمليات التعلم والمحاكاة والتعامل والغرس والتنشئة التي يتلقاها الأفراد في مجتمعهم. وبشكل أدق تعتبر الخصوصية "مجموعة من العناصر الثقافية المتنوعة، تتميز عن بعضها البعض بالوظائف التي تقوم بها كاللغة والقيم والعادات والأديان والأخلاق، حيث تقوم بين هذه العناصر عمليات متداخلة، ورغم ارتباطها يمكن دراسة كل جزء مستقل عن الآخر مع صعوبة عزل تأثير العناصر بعضها عن بعض[1]

وهنا يمكن أن نتطرق إلى مصطلح له علاقة بإشكالية الهوية والخصوصية الثقافية وما يمكن أن يؤثر عليها من ناحية المفهوم والوظيفة.

التثاقف: Acculturation

يعتبر التثقف تعلما دون تعليم معلن، يعمل بكيفية غير قصدية أو لا شعورية غالبا من طرف عوامل التثقيف، فنحن_مثلا_ نكتسب نبرة الكلام الخاصة بمنطقتنا دون أن يعلمنا أحد[2].

إذا يتعلق التثقف باكتساب عادات وأنماط العيش والسلوك والقيم الاجتماعية من المجتمع الواحد الذي ننشأ فيه ونتأثر به، بينما عملية التثاقف أوسع من ذلك.

[1]– أحمد زردومي، منظمة اليونسكو بين حماية الخصوصيات وأمل العولمة، العولمة والهوية الثقافية، سلسلة أعمال الملتقيات، مخبر علم الاتصال للبحث والترجمة، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2010، ص 100.

[2]– عبد القادر لورسي ومحمد زوقاي، المعجم المفصل في علم النفس وعلوم التربية، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ط 1، ص 85، بتصرف.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:373–388 تاريخ النشر: 30–05–2019

يتعلق التثاقف بعملية التأثير المتبادل بين الجماعات الثقافية التي تحتك بعضها ببعض، ومن أمثلة ذلك المجتمعات التي تستقبل أشخاصا وافدين إليها عن طريق الهجرة وحالات الغزو والاستعمار وغيرها[1]. فالتثاقف عملية متاحة كلما كان هناك احتكاك بين أكثر من ثقافة وكلما توفرت وسائل التأثير والتأثر، وهذا بدوره ينعكس على الهوية الثقافية لكل مجتمع من ناحية مفهومه لذاته ومن ناحية ما سيقدمه هذا المجتمع. بالحديث عن التثاقف يتبادر إلى الأذهان سؤال مهم فهل يتعلق هذا التثاقف باقتراح الأشخاص لعاداتهم وعرضهم لبعض الخصائص الثقافية الخاصة بهم أم يصل هذا الأمر إلى درجة المساس بهوياتهم وتغيير اهتماماتهم ومعتقداتهم؟

يبدو أن الأمر يتعلق بدرجة تمسك كل فرد في المجتمع بهذه الهوية من ناحية، ووضوحها وثباتها واستقرارها في هذا المجتمع، كما يمكن أن يكون له علاقة بمتغير أصبح شائعا في عصرنا الحالي وهو إعادة نظر الأفراد أنفسهم في ثقافتهم المجتمعية ومدى ملاءمتها لقناعاتهم الشخصية التي يحتمل أنها نتاج تعليمهم واحتكاكهم بثقافات ومستويات معينة من التفكير والممارسات، فانفتاح الفضاء الاجتماعي والثقافي بفعل التطور التكنولوجي وانتشار وسائل التواصل الحديثة كان له انعكاسات واسعة إلى حد كبير على مفهوم الهوية الثقافية وحتى ما يصدر من قبل الأفراد من سلوكات باسم هاته الهوية. فإلى أي مدى يمكن أن تعزز هاته الوسائل الحديثة _على اختلافها_ هوية الفرد؟ أم أن تأثيراتها تقتصر على عملية التغيير؟.

إن الأمر أكثر تعقيدا من مجرد الإجابة بالأولى أو الثانية، فإذا تحدثنا عن الفرد من ناحية، هو كائن اجتماعي تربطه بمجتمعه عادات ولغة وممارسات وخصوصيات وعلاقات وتاريخ وهكذا لا يمكن اعتباره صفحة بيضاء... ومع ذلك فهو قابل للتغيير،

[1] – المرجع نفسه، ص 86، بتصرف.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:373–388 تاريخ النشر: 30–05–2019

لأن الظروف الاجتماعية والخصوصيات الثقافية في حد ذاتها أصبحت تتعرض للتغير باستمرار وفق مؤشرات عالمية تدفعها نحو ذلك ويمكن أن تندرج معظمها تحت مسمى "العولمة"، فبقوة وتطور وسائل وتقنيات الاتصال والإعلام والتواصل، تزداد قوة الرسائل الاتصالية وقدرتها على التأثير، حيث أن "التقنيات ترتبط بمظهرين من التبادل: وسائل النقل والتواصل. ومن الملائم التمييز بينهما جيدا، ذلك أن وسائل النقل تتحدد بصفتها تقنيات تسمح بنقل الأشخاص والخيرات من مكان لآخر، ..أما وسائل الاتصال فتتحدد بصفتها تقنيات تسمح بتمرير الخبر بين الأشخاص".[1] ليس فقط الخبر بل الخبرات والثقافات وأنماط الحياة المختلفة، هذان النوعان من التقنيات يشكلان جزء من الثقافة.

وبالعودة إلى العولمة كعملية "تشير إلى تمدد التداخل الثقافي العالمي، يمكن إدراك أنها تؤدي إلى نشأة كيان عالمي تعريفه أنه: نطاق من التبادل والتفاعل الثقافي المتواصل، من خلال التدفقات الثقافية والتي تؤدي بدورها إلى إفراز تجانس وفوضى ثقافية في آن واحد، كما تفرز ثقافات عابرة للقوميات وهو ما يعد "ثقافات ثالثة".[2] هنا قد نقترب من إيجاد حل للتساؤلات المطروحة سابقا، فهنا مستوى التعقيد مطروح بالنسبة لخصوصيات الأفراد وهوياتهم الاجتماعية والثقافية، حيث تلعب العولمة الثقافية والسياسية دورا في تمزيق وحدة الهوية ووحدة الخطاب الديني والخطاب القومي والخطاب الوطني

[1]– جان بيير فارنيي، عولمة الثقافة، تر: عبد الجليل الأزدي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2002، ص35.

[2]– مايك فيذرستون، ثقافة العولمة، تر: عبد الوهاب علوب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005، ص7، بتصرف.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:373–388 تاريخ النشر: 30–05–2019

السياسي[1] أمام حتمية التواصل الثقافي وقوة وسائله ودوافعه، وكذا اتساع تدفقاته وتأثيراته يقودنا إلى وضعية ثالثة هي نتاج هذا التمازج. وفكرة التمازج تتراوح بين أن تعني التكيف والاتساق، وبين أن تشير إلى الصراع والاختلاف، وقد أشار ادم كوبر _في نفس السياق_ أن كل ثقافة هي متعددة الثقافات، كل ثقافة هب نتاج المزج، والاقتباسات والخلط الذي حدث _ وإن كان بمعدلات مختلفة_ منذ بدء العصور[2]. وفي كل الحالات يحدث ما يسمى بالتغير الاجتماعي والثقافي الذي يلقي بظلال تأثيراته على مفهوم الهوية خاصة وأن انتماءات الأفراد اليوم وولاءاتهم وممارساتهم تتغير وفق حركة عالمية تتجه نحو نوع من التعاملات التي يمكن أن نسيمها "فوق واقعية"، لها طابع الوساطة والتجديد والعالمية من خلال تطور تقنيات الاتصال والتواصل، وهنا نجد مفارقة بين ما يتميز به هذا الأخير (الذي هو وليد الحداثة والتطور)، وما يميز الهوية بمفهومها التقليدي من ثبات _نسبي_ وطابع الممارسة والفعل، كأن نتحدث عن العادات والتقاليد التي تعكس انتماء وهوية معينة، وعملية الانتقال والتغيير ستؤثر بطبيعة الحال على مستوى المفاهيم والمعتقدات الهوياتية لكل فرد، فليس من المبالغة القول بأن كل ما كان يتمتع بالثبات والاستقرار سابقا، أصبح يتعرض اليوم لإمكانيات النقد والتغيير، ورغم أن لهذا الأمر إيجابياته الممكنة، إلا أنه _على مستوى الممارسة_ ساهم بشكل أو بآخر في أزمة ازدواجية الهوية وتعدد انتماءات الأفراد وتناقض الفرد مع ذاته في كثير من الأحيان، خاصة عندما تتعرض المجتمعات المسلمة _على سبيل المثال وليس الحصر_ لعدم

[1]– جيلالي بوبكر، الهوية والعولمة، أعمال الندوة السادسة والعشرون "الهوية والاختلاف"، الجمعية الفلسفية المصرية، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 2016، ط1، ص 413.

[2]– ادم كوبر، الثقافة التفسير الأنتروبولوجي، تر: تراجي فتحي، مرا: ليلى الموسوي، عالم المعرفة، الكويت، 2008، ص231.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:373–388 تاريخ النشر: 30–05–2019

الاستقرار السياسي والاقتصادي فهذا يتيح فرصة أكبر لزعزعة هويتها واتجاه أفرادها إلى بدائل ثقافية أخرى، فقد تتحول الهوية إلى اغتراب وتنقسم الذات على نفسها، مما ينبغي أن يكون إلى ما هو كائن، أي ضرورة الإخضاع للضغوطات والظروف الخارجية، يتناول الفلاسفة موضوع الاغتراب منذ "هيقل" و"ماركس" وحتى فلاسفة الوجود المعاصرين أمثال "سارتر" و"مارسل" و"ياسبرز"، فالاغتراب هو الأكثر شيوعا ووقوعا، وبعض الفلاسفة يرون أن كل شخص يمسه الاغتراب بشكل أو بآخر، على درجات من الشدة، ولا يمكن التخلص من الاغتراب أو على الأقل درجة منه يحددها التحقق الذاتي.[1] وهذا قد يرجع ببساطة إلى انفتاح العلاقات الإنسانية على بعضها البعض وحركات التفاعل والتثاقف بين أكثر من ثقافة، وأكثر من فرع ثقافي، وربما حتى أكثرها تناقضا واختلافا. كل هذه العوامل تجعل من الهوية عنصرا قابلا للتغيير_ سواء رآه البعض إيجابيا أو سلبيا_ بل إنه أمر طبيعي إلى حد كبير، لكن الأمر الذي طالما شغل الباحثين خاصة حول فئة الشباب في العالم الإسلامي والدول الأقل حظا في التنمية _عموما_ تلك التعقيدات الثقافية والنفسية التي تطال هاته الفئة من التغيير الذي قد يصل حد التناقض مع الذات مما ينعكس على فاعليتهم وإنجازاتهم في المجتمع كأفراد حاملين لهوية ثقافية واضحة الأهداف والسمات.

وقد أشار "مالك بن نبي" إلى أن علاج الثغرات النفسية والاجتماعية للشباب يكون من خلال فكرة عليا تصل بين الروحي والاجتماعي، وتجري من جديد تركيب الشخص السليم المسلم بحيث يتماثل مع ذاته، في المسجد وفي الشارع. [2]

[1]– حسن حنفي، الهوية، سبق ذكره، ص 24، بتصرف.

[2]– مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، 1979، ص100.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:373–388 تاريخ النشر: 30–05–2019

وبما أن هناك إجماعا على أن الهوية الثقافية تفترض بالضرورة وجود مقومات مثل الثبات والتطابق مع الذات فهذا يفسر ما تتعرض له الهويات الثقافية من تحديات على مستوى الممارسات التي نجدها اليوم لدى الشباب في الغالب، حيث أن متطلبات عصر اليوم من سرعة وتغير وتجديد تتصادم مع متطلبات الهوية الثقافية وأساسياتها، وبالتالي فإن الشعوب التي تحافظ على هويتها الثقافية اليوم وأمام تكنولوجيات ووسائل الاتصال والنقل وسرعتها وما يرافق ذلك من ثورة وزخم المعلومات والأفكار وتنوع طرق عرضها وقوة انتشارها، إنما هو دليل قوتها وثباتها.

قائمة المراجع:

– ادم كوبر، الثقافة التفسير الأنتروبولوجي، تر: تراجي فتحي، مرا: ليلى الموسوي، عالم المعرفة، الكويت، 2008، ص231.

– أحمد زردومي، منظمة اليونسكو بين حماية الخصوصيات وأمل العولمة، العولمة والهوية الثقافية، سلسلة أعمال الملتقيات، مخبر علم الاتصال للبحث والترجمة، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2010، ص 100.

– أحمد بن نعمان، هذه هي الثقافة، دار الأمة للطباعة والترجمة، الجزائر.

– إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، معجم مصطلحات عصر العولمة، الثقافية للنشر والتوزيع، 2006.

– جان بيير فارنيي، عولمة الثقافة، تر: عبد الجليل الأزدي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2002.

– محمد جلوب الفرحان، الخطاب النهضوي في فكر مالك بن نبي، دار بن مرابط، الجزائر، 2014.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:373–388 تاريخ النشر: 30–05–2019

– عبد السلام عفوفو، المفاهيم العامة للثقافة وانعكاساتها، مجلة دراسات إسلامية، الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، العدد 20، 2006.

– عبد القادر لورسي ومحمد زوقاي، المعجم المفصل في علم النفس وعلوم التربية، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ط 1.

– عزي عبد الرحمن، دراسات إعلامية في نظرية الاتصال، سلسلة كتب المستقبل العربي، رقم 28، مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت، ط1، 2003.

– تيري إيجلتون، فكرة الثقافة، تر: شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2012.

– خالد حامد، مدخل إلى علم الاجتماع، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ط03.

– حسن حنفي، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2012، ط 1.

– طوني بينيت_لورانس غروسبيرغ_ ميغان موريس، مفاتيح اصطلاحية جديدة، تر: سعيد الغانمي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2010، ط 1.

– طيب برغوث، محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، الشاطبية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ط1.

– مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، 1979.

– مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، 2000.

– مايك فيذرستون، ثقافة العولمة، تر: عبد الوهاب علوب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005.